العقيدة والعمل

أيهما يوجه الآخر ويؤثر فيه ؟

للاستاذ محمد حماني الوياغلي

جاء في حديث جبريل عليه السلام ان الاسلام (ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتوتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا) ، وان الايمان (ان تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتومن بالقدر خيره وشره) لفظ صحيح مسلم .

فالاسلام والايمان ذكرا معا في حديث جبريل لماذا ؟ لانهما مرتبطان ببعضهما ، احدهما يمثل الظاهر والآخر يمثل الباطن ، والظاهر والباطن هما الحقيقة الكاملة للانسان ، لذا كثر ذكرهما في القرءان مرتبطين في اكثر من ستين آية ، نحو (والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

واذا كانا مرتبطين بالفعل فأيهما اصل للآخر او تابع او متبوع للآخر، وما مدى الفعالية فيما بينهما ؟ ، والظاهر ان العمل تابع للايمان ، بدليل ان العمل يتصل بالجوارح ، والجوارح تتحرك بالارادة ، والاراده تاتي من الضمير مكمن العقيدة والايمان ، وعليه فالعمل تابع للعقيدة ، والاصل هو العقيدة ، فاذا صلح الاعتقاد صلح العمل ، واذا فسد الاعتقاد فسد العمل، لذا لم يهتم الاسلام بشيء مثل ما اهتم بالعقيدة ، وفيها نزل جل القرءان وفيها جاهد الرسول صلى الله عليه وسلم طول حياته، ولم يهتم بالامور العسكرية او بالامور التنظيمية او باصلاح المجتمع او بمقاومة الفساد الا بمقدار ، وفي آخر الامر ، لان شرور الناس افرادا وجماعات كلها تاتي من العقيدة وفساد الضمير، فاذا أصلح الضمير وغسل من أوساخ الجاهلية، وسموم الجاهلية، وصحا من غفوته وعاد لرشده وارتبط بربه صلح كل شيء في الجوانب الاخرى في حياة الانسان ، لانها كلها تاتي من الانسان نفسه ، فاذا أصلح هذا الانسان باصلاح عقيدته وتنقية ضميره ، وصار انسانا صدقا ذهب الفساد كله ،

وجاء الاصلاح كله ، جاء في صحيح مسلم عن النعمان بن بشير (ض) عن البني (ص) قال : (... الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله . الا وهي القلب) والانسان لا يتبعض فيه شيء صالح وشيء فاسد ، واذا تظاهر كذلك في بعض الاحيان فالامر ليس كذلك ، اقترب منه ودارسه تجد احد الجانبين فيه غالبا ، والآخر تابعا ، والحكم دائما يكون للغالب ، والتابع يكون هامشيا حكمه في غيره .

والمضغة في الحديث القطعة من اللحم ، سميت بذلك لانها تمضغ في الفم لصغرها ، والمراد تصغير القلب بالنسبة الى باقي الجسد ، مع ان صلاح الجسد وفساده تابعان له ، وفي هذا الحديث تأكيد على السعي في اصلاح القلب وحمايته من الفساد ، والمراد باصلاح القلب هنا اصلاح العقل باعتبار انه قائد الجسم في تصرفات الانسان كلها ، فكما ان قائد الامة ورئيسها هو عاقلها ، كذلك قائد الجسم في الاعمال هو قلبه او عقله ، وهما مترادفان في مفهوم القرءان ، باعتبار ان الاول محل للثاني ، وان العقل يكون في القلب لا في الدماغ ، بدليل قوله تعالى : (افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) الآية 46 سورة الحج ، وقوله : (ان في ذلك لذكرى لمن له قلب) . الآية 37 ـ سورة « ق » .

فان قيل : الدين امر فطري في طبيعة الانسان ، قال تعالى : (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها) الآية 30 ـ سورة الروم . فكيف ظل القرءان يعالجه ويدعو الناس اليه نحو ثلاث وعشرين سنة ، مع انه امر طبيعي كما قلنا ؟ الجواب ان الدين له جانبان : جانب وجداني وهو الشعور بكينونة قوة غيبية خارقة تتصرف في الانسان وسعادته وشقائه وتسييره في شؤونه وصحته ورزقه ونجاحه وفشله وحياته ومماته ، ويجد من نفسه امامها العجز الكلي والافتقار الى الاستمداد منها والاحتماء بها ، وهذا جانب فطري كما سبق ، وجانب عقلاني وهو كون هذه القوة الغيبية التي تسير الكون، وتمد الانسان بالرحمة والهداية والشفاء، تنحصر في اله واحد وهو الله تعالى وحده لا شريك له ، ولا تقبل التعدد ، قال الله تعالى : (لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا) ، 22 ـ الانبياء ، وقال : (وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) 91 ـ المومنون والدين بالمعنى الوجداني كان في الجاهلية ، قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) ، 61 ـ العنكبوت ، وقال

(ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله) ، 63 ـ العنكبوت ، وبالمعنى التوحيدي به جاء الاسلام ، والقرءان عند ما طرح قضية التوحيد في العقيدة بين الناس لم يطرحها كمصلحة من المصالح ، واخذ يروج لها بالوجدانيات والمغريات والاطماع ، بل طرحها كمبدا حقيقي فكري تحرري دقيق ، لا يدرك الا بالعقل والمنطق وطول التأمل في آياته ، لذا اعتمد في الدعوة اسلوب الحوار الهادىء والجدال الرصين ، وطريق الحوار والمنطق والبرهان صعب على معظم الناس ان يستسيغوه وينقادوا له بسهولة ، لانه طريق شاق ، فيه عملية ذهنية معقدة، وجل الناس يعيشون على البسائط والوجدانيات والتوافه ، لذا عانى (ص) في الدعوة ما عانى ، لان الدين بهذا المعنى يحتاج في نشره واقناع الناس به ، الى معاناة ووقت طويل ، انظر الى نوح عليه السلام،فانه لبث فى قومه يدعوهم الى الاسلام والتوحيد الف سنة الا خمسين عاما فما أجدى فيهم كبير فائدة حتى اخذهم الطوفان .

ولماذا لم يكتف القرءان في العقيدة ان تكون وجدانية فقط ، واصر على ان تكون علما ايضا ؟ ، الجواب ان الوجدانيات امرها سهل سواء في النبات او الزوال ، وانها تتغير لامر او آخر لادنى سبب ، ولا استقرار لها، والعلم امر ثابت لا يتغير ، قال في جمع الجوامع (الادراك بلا حكم تصور ، وبحكم تصديق ، وجازمه الذي لا يقبل التغيير علم ، وقابله اعتقاد ، صحيح ان طابق ، فاسد ان لم يطابق) ، وعليه فهناك فرق بين الاعتقاد والعلم ، وان كان كلاهما يجمعهما الادراك الجازم ، الا ان الاعتقاد تصديق جازم وكفى اى لا عن دليل ، ويمكن ان يكون مطابقا وان لا يكون مطابقا ، واما العلم فهو تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل ، ومن ثم ظل القرءان يعمل باستمرار لان يجعل العقيدة دينا وعلما معا ، دينا وجدانيا وعلما عقلانيا مبرهنا عليه بالادلة الكافية ، ومن ثم ايضا كان الجهل عدو الاسلام لانه يحاربه ويضعفه ويميته ، والعلم صديقه لانه به ينمو وينتشر ويقوى ، فالعلم والاسلام مترادفان او متعاونان على محاولة خلق الانسان الكامل الذي يتأهل ان يكون نموذج البشر المفضل الذي خلقه الله ليعمر هذه الارض ، ويحول ما فيها من فقر الى غنى ، ومن شقاء الى سعادة ، ومن ظلم الى عدل وعز وكرامة ووفاء ، اهلا لان يكون فيها خليفة لرب العالمين .

وهنا اي بين العقل والوجدان ظلت الدعوة الاسلامية تعمل وتتفنن فى العمل ، وتتبلور شيئا فشيئا بالتدريج حتى تمت الصورة وتمكن الايمان من النفوس واستولت اثار العقيدة على السلوك، ثم جاء التشريع بعد الايمان، والهجرة بعد الايمان ، والجهاد بعد الايمان، كل ذلك كان بيانا لمرتبة الايمان من العمل وانه مقدم عليه وان منبع الشريعة ومنبع الهجرة والجهاد والاحكام وتصرفات الانسان كلها هو الايمان ، جاء في الصحيح : (الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب) .

هذه هي الحقيقة ، وان العمل تابع للضمير ، وان الايمان الصحيح متى استقر في القلب ظهر اثاره في السلوك ، فهو عقيده متحركة موجبة لا تطيق السلبية بطبيعتها ، فهي بمجرد ما تتحقق في عالم الشعور تتحرك لتحقق نفسها في الخارج في عالم السلوك وتترجم نفسها الى حركة وعمل في عالم الواقع .

هذا وهل للاعمال من فعالية على الضمير ، او الضمير وحده هو الذي يوجه الاعمال ، او ينعكس على الاعمال بالنسبة لتصرفات الانسان ؟ بمعنى انه يؤثر ولا يتأثر ؟ .

الجواب : انهما في الحقيقة متفاعلان ، فقد رأينا اثار الضمير على الاعمال كما سبق ، فهيا بنا ان نرى آثار فعالية الاعمال على الضمير فيما يلي :

تقدم ان منهاج الاسلام الواضح في التربية يقوم على أساس ترسيخ العقيدة وتثبيتها في الانسان اولا لانها اساس العمل ومنطلق الرؤية ومدرك المصالح ، ثم يقوم بتحويل العقيدة الى حركة وعمل ، او تنقلب العقيدة بذاتها الى حركة وعمل ، علما منه بأن الحركة والعمل مشتقان من عقيدة الانسان وضمير الانسان ، مرتبطان بدينه قائمان على الالتزام بمبدئه الذي التزم بارادته وعزمه السير على مقتضاه ، وشيئا فشيئا تتحول عقيدته الى اعمال ثابتة وقانون مستمر ، مع الابقاء على الدافع الديني الاول حيا فى كل حركة وفي كل عمل ، بحيث تكون اعماله متصلة بضميره او متصلة بشعوره بأنه في سلوكه تحت اشراف ربه ، وهذا ما يعرف في اصطلاح القرآن بذكر الله، قال تعالى : (فاذكروا الله كذكركم آباءكم او اشد ذكرا)200

البقرة. وقال: (الا بذكر الله تطمئن القلوب) 28ـ الرعد، والذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس، بها يمكن للانسان ان يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ الا ان الحفظ يقال اعتبارا باحرازه ، والذكر يقال اعتبارا باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشيء القلب سواء مع القول او بدونه ، لان الذكر بمعنى حضور الشيء القلب هو الذي يحسن سلوك الانسان ويجعله يستحضر هيبة ربه والخوف من ربه واحترام ربه وفي طاعة ربه ، اما الذكر باللسان وقلبه غير حاضر مشغول عن معناه بالسوق او المتجر أو اهواء اخرى فهو هذيان وضياع ، وما هو من الذكر في شيء ، فالعبرة بالمعاني لا بالالفاظ .

وهذا كله يتسق مع المبدا الذي يقول ان الضمير هو الذي يتحكم في الاعمال ويطبعها بطابع معين، وهذا لا ينافي ان الاعمال ايضا لها اثر على الضمير بل بالعكس يقرر ان للاعمال اثرا على الضمير ولو في تشغيله ، لان عضو الجسم اذا تعطل عن العمل يشل ويموت ، فهذا يكفي في تاثيرها عليه ، وهذا ينتج ان الاعمال هي التي تنمي الضمير وتقويه فيما اذا كانت منسجمة معه ، وتضعفه او تميته فيما اذا كانت غير منسجمة معه .

وبيان ذلك بمزيد من الوضوح ان الايمان بشيء يعني الاقتناع بمبدأ معين ، ثم معانقته والالتزام به ، ثم العمل في السلوك وفقه ، قال تعالى: (ان الذين ءامنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) وكون الشرع فرض العمل والسلوك وفق الايمان ، فهذا يعني ان الاعمال لها فعالية على الضمير وهو كذلك ، وهذا ما يسمى بالتربية ، اي ان الاعمال تربي الضمير وفق المبدأ المعانق ، وكل ما كانت الاعمال وفقه كان الضمير يقوى بقدر ذلك، وكل ما كانت الاعمال بخلافه ، كان الايمان يضعف بقدر ذلك ، قال تعالى : (بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يومنون الا قليلا) 55 ـ سورة النساء، وقال: (فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم)،5ـ سورة الصف، فالاعمال دائما لها علاقة بالايمان قوة او ضعفا وزيدا او نقصا ، جاء في صحيح البخاري ، قال : (الايمان قول وفعل ويزيد وينقص) اي يزيد بالاعمال الملائمة وينقص بالاعمال المضادة ، وجاء في احياء العلوم للغزالي رقم 1/107 : (الايمان يطلق فيما يطلق عليه على التصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد ، والاعتقاد عبارة عن عقده في القلب ، تارة تشتد وتقوى ، وتارة تضعف وتسترخي ، كالعقدة على الخيط مثلا) ، ثم قال : (والعمل يؤثر في نماء هذه العقدة او هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في نماء الاشجار ، لذا قال الله تعالى :

(فزادتهم ايمانا) ، وقال : (ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) ، وذلك بتأثير الطاعات في القلب ، وهذا لا يدركه الا من راقب نفسه في اوقات المواظبة على العمل في العبادات والتجرد لها بحضور القلب ، مع اوقات الفتور وادراك التفاوت في السكون الى عقائد الايمان في هذه الاحوال ، حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك ، بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة ، اذا عمل بموجب اعتقاده ، فمسح راسه وتلطف به ، ادرك من باطنه تأكيد الرحمة ، وتضاعفها بسبب العمل ، وكذلك معتقد التواضع اذا عمل بموجبه عملا مقبلا او ساجدا لغيره ، احس من قلبه التواضع عند اقدامه على الخدمة وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها اعمال الجوارح ، ثم يعود آثار العمل عليها ، فيؤكدها ويزيدها) هـ .

تنبه الى قوله ، وهكذا جميع اعمال الجوارح فهي تصدر عن القلب ، ثم يعود آثارها على صفات القلب ، فيؤكدها ويزيدها في حالة التجاوب ، ويضعفها ويزيلها في حالة التخالف ، وهذا ما يؤكد وجود الفعالية بين الاعمال واحوال الضمير ، فالايمان يعني ضمير الانسان ، والاعمال تعني ضمير الانسان،او تمثل ضمير الانسان،وكلاهما يتصل بالآخر سواء في حالة السلب أو حالة الايجاب،وهذا هو السر في كون الاستعمار يعتمد في محاربة الاسلام على افساد اخلاق شباب المسلم ، وسلوك شباب المسلم ، وابعاد اعمال شباب المسلم عن ضمير المسلم ، ليفرغ هذا الضمير من كل اثر فيه للاسلام ، ليتأتى له ان يغرس فيه ما يوافقه من الحاد او شيوعية او غيرهما مما يريحه من جهة الاسلام واخطاره عليه ، فهو يدرك جيدا ان الانسان يختلف عن الآخر في النظر والحكم باختلاف العقيدة ، او الايديولوجية ، فالانسان الموحد غير الوثني ، والمتدين غير الملحد ، واليهودي غير المسلم والشيوعي غير الراسمالي ، فمن تربى على الشيوعية وشرب من عين الشيوعية وحدها يرى ان الشيوعية هي علاج الشعوب فيما تعانيه من ظلم واستغلال وضياع ، وانها المبدأ الذي يستحق الجهاد في سبيله بالنفس والنفيس ، وانه اذا ساد هذا المذهب في الارض سادت السعادة والاستقرار وانقطعت الحروب وانتهى الصراع الى وفاق واخوة وتعاون بين الجميع .

والرأسمالي كذلك ينظر الى الحياة الراسمالية على انها المبدأ الطبيعي والحياة المثلى ، لذا يجب ان تسود الراسمالية في الارض ويدافع عنها المرء الى النهاية بالنفس والنفيس . فالسير بالطفل في حال تربيته على مذهب معين وسقيه بمبادئه وتلوينه بلونه يعني صنع الانسان الذي

يحتاج اليه المربي والا فالطفل يولد صحيفة بيضاء فأبـواه يهودانـه او ينصرانه او يمجسانه ، كما في الحديث .

يقول بعضهم ان هذين المذهبين الشيوعية والراسمالية همـا في الاقتصاد لا في العقيدة ، وهذا كلام واهم لان ضمير الانسان لا يتبعض (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) وهذا يساوي مـا جعـل الله لرجل من عقلين في قلبه ، عقل شيوعي وعقل اسلامي ، او عقل اسلامي وعقل راسمالي او عقل مغربي وعقل فرنسي ، وانما هو عقل واحـد امـا فرنسي او مغربي او شيوعي او راسمالي او اسلامي ، وغير هذا اما ضلال او تضليل ، فالانسان لا يتبعض بين مذهب وآخر، أو بين عقيدته وعمله،فما يكون في سلوكه هو الذي يكون في ضميره ، فالظاهر عنوان الباطن كمـا يقولون ، وفي الحديث (من اسر سريرة البسه الله رداءها) .

فالشيوعي فى الاقتصاد قطعا شيوعي ايضا فى العقيدة، شيوعي ايضا فى الضمير ، شيوعي ايضا فى الثقافة والفلسفة والسلوك والعرف والعادة والتربية والتوجيه ، وهذه الجوانب المتعددة هي التي تخلق الضميـر المناسب ، او الاعتقاد المناسب ، او الايمان المناسب ، فالفرد الشيوعي دائمـا يتأثـر بمجتمعه وبما فيه من مثل واخلاق ودين والحاد وعادات .

وكذلك المذهب الراسمالي يقال فى حقه مثل ذلك،فهومذهب اقتصادي فى الاصل ، ولكن يتحول الى تربية ضمير خاص فى الانسان ويتحول الى سلوك وتوجيه وعقل مصوغ في قالب معين وفلسفة معينة ، وأى شيء تنتجـه الاوضاع الراسمالية والاخلاق الراسمالية هي التي تخلق ضمير الانسان الراسمالي او الراي العام في المجتمع الراسمالي او المثل العليا في هذا المجتمع ، فاذا كانت هذه الجوانب من شأنها ان تنتج الالحاد والفسوق ، والميوعة والشره والاستغلال كان كذلك ، واذا كانت من شأنها ان تنتـج الترابط والتماسك والوحدة كان كذلك .

هكذا دائما تكون علاقة الاعمال بآثارها فى الضمير،فهي له بمنزلة القوت والغذاء في الايجاب ، وبمنزلة العلة والزوال في السلب ، وهذا المعنـى يتجسم فى الحديث التالي،عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال : (ان العبد اذا اذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فاذا تاب منها صقل قلبـه ؛ وان زاد زادت) ، فذلك قول الله تعالى : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون).

وجاء في احياء العلوم للغزالي رقم 4/314 (اذا حصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل على مقتضى الميل ، والمواظبة عليه ، فان المواظبة على العمل طبق صفات القلب وارادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات ، حتى تترسخ وتقوى بسببها ، فالمائل الى طلب العلم او طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء الا ضعيفا فان اتبع مقتضى الميل ، واشتغل بالعلم وتراتيب الرياسة والاعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه النزوع ، وان خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر ، وربما زال وانمحق ، بل الذي ينظر الى وجه حسن مثلا ، فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه ، فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمجاورة ، تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زبرا ودفعا في وجهه ، حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي ، وهكذا جميع الصفات خيرات أو شرورا) هـ .

هذه هي علاقة الاعمال بآثارها في القلوب ، فهي لها بمنزلة القوت والغذاء في الايجاب ، وبمنزلة الزبر والمحو في السلب ، فالميل للشيوعية وان كان ضعيفا في أول الامر ، فالمواظبة على العمل في اطار المبدا يقوي النزعة الباطنية ، ويجعلها تنمو بالاستمرار ، حتى تكون لها الهيمنة على نفسه وأعماله وأفكاره وخلجات قلبه كلها ، ومثلها جميع المذاهب الاخرى .

محمد الورياغلي
كلية أصول الدين
تطوان